من ذكريات الشباب

اجترار

الأستاذ حبيب الزحلاوى

— ٢ —

حكايتى أيها الأصدقاء تدور حول الأثر الذى تركته حوادث الجهاد الوطنى فى نفسى ، لا حول أبلغ حادث حدث لى .

كنت أتوقع عندما عينت ضابطاً فى الجيش أن ألقى مشاكسة من زملائى الفرنسيين ، وتعالياً على الضابط « العربى » فوطدت النفس على التمسك بالكرامة مع السلاسة واللطف ، نجحت بعض النجاح فى السير على منهاجى ، وكنت أفشل فى قطع ألسنة أولئك الضباط عن القدح فى قومى وسب « السوريين القذرين » ولاسيما حينما كانت تضمنا مائدة شراب ، ولم يكن يند عنهم إلا ضابط من رتبتى كان يقف دائماً فى وجه أولئك القادحين فيصدهم عن المضى فى طعن الأمة العربية إكراماً « لزميلنا الضابط الكيس والحلصاء الذين عرفناهم من السوريين » فكان أولئك الضباط الأجلاف ينحرفون عن الموضوع ، ناسبين ذلك إلى ما يلاقون من الشعب من كراهية وبغض ، وكان ذلك الضابط نضر الله وجهه ، يدافع عن حق السوريين وينعت حكام قومه بالطيش والهوج فى مد حكمهم وبسط وأخبار رجال السياسة البعيدين عن مواطن الخطر ، وأخبار إخواننا المهاجرين تصلنا منبئة بقيامها كلها متساندة متضافرة تعمل لجعل هذه الثورة هى الأخيرة للخلاص التام من الأجنبى المستعمر .

عملت ما فى وسعى لأقنع الأجناد الوطنيين تحت إمرتى أن نهرب بسلاحنا وميرتنا للالتحاق بإخواننا المجاهدين لتحرير الوطن ، وقبل انبلاج الصبح كانت دوابنا المثقلة بالأحمال على

سناد التأسيس :

فى العدد (٦٥٢) من أعداد الرسالة خطأ الأستاذ محمد محمود رضوان بيتى الشاعر أحمد عبد المجيد الغزالى وهما :

كأن به فى حلة الملك رافلا ... يخب بدنيا ليس يدنو لها مدى
عوالم هذا العصر أنت وسمتها ... بفنك لم تعجز لسانا ولا يدى

وقال إن الخطأ فيما يسميه العروضيون « سناد التأسيس » .

والحقيقة غير ما قال الأستاذ الناقد إذ أن « سناد التأسيس » فى البيتين السابق ذكرهما موجود وإنما الخطأ فى « سناد الإشباع » كما يقول أهل العروض ، وليس فى « سناد التأسيس » كما قال الأستاذ الفضال .

فحركة الدخيل فى الأبيات كلها بالخفض ، إلا فى البيتين المنقودين فإنها جاءت بالفتح ، وذلك ما يسمونه سناد الإشباع .

ومنى على الناقد والمنقود تحية وسلام .

عدنان أسعد

حول سجون بغداد :

أرجو ، أن يتفضل من كان لديه أخبار تتعلق بسجون بغداد وما يتصل بها — لم أذكرها فى مقالاتى التى نشرت فى هذه المجلة — فينشرها فى هذا البريد الأدبى ، وله منى الشكر سلفاً .

صلاح الدين المنجد

إدارة البلديات — مياه

تقبل العطاءات بإدارة البلديات (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر يوم ٥ فبراير سنة ١٩٤٦ عن توريد مواسير وقطع وأدوات مياه لمجلس تلا

وتطلب الشروط والمواصفات من الإدارة على ورقة دمغة فئة الثلاثين مليما مقابل دفع ٢٠٠ مليم و٠٠ جنيه خلاف مصاريف البريد . ٤٧٤٢

بضعة كيلو مترات من مرابط الثوار ، والفضل فى هربنا يعود إلى زملائى الضباط الفرنسيين الذى أتقل « الحشيش » أدمغتهم تلك الليلة .

فى منتصف ليلة من الليالى ، سرنا بطوائف منظمة من الثوار لنقطع الطريق على حملة من الفرنسيين جاءت لتطويقنا من ناحية الشمال ، بلغنا الموقع الذى قدرت أن الواقعة ستقع فيه ، ووزعت رجالى توزيعاً يوهم العدو بكثرة عددنا ، وأوصيت بعدم الاسراف فى إطلاق الرصاص ليكون متواصلا ، ووقفت فى مكان مرتفع مع بعض زملائى نرقب الموقعة ونديرها .

لم أر ولم أسمع فى حياتى عن موقعة التزم رجالها ضبط النفس والعمل بإقدام وشجاعة وحزم كتلك الموقعة التى كانت كأن الصخور والمتاريس وأكوام الحجارة هى التى تتفجر فتطلق النار فتصيب الهدف ؛ لا رجالا مثلنا من لحم ودم .

أخذت الشمس تميل إلى الغروب ، ولم يتقدم العدو خطوة إلى الأمام ، ولم يتبين له أ آدميون يقاتلونه ، أم مردة وشياطين يصبون عليه الموت ، وبينما نحن فى هـذا الموقف ترفرف فوقنا أجنحة الشعور بالظفر على العدو وإفساد خططه ، وإذا بصوت من الخلف ينادينى باسمى مقرونا بصفة حبيبة إلى قلبى « يا صديق العزيز ، لا تظن أنى أغتالك غدراً بل أقتلك دفاعاً عن قوى وشرفى العسكرى » وصوب بندقيته وسددها .

يكفى أن أقول لكم يا إخوانى إن خمس بندقيات صوبت فى لحظة واحدة إلى صدر « صديق العزيز » وإلى من كان معه من ضباط ، وأن رصاصتى كانت الأسبق إلى قلبه .

بكيت ذلك الصديق ، وما برحت أبكى سجاياه وشمائله ، لأنه إنسان مهذب .

سأل واحد من المستمعين بتلهف عن مصير تلك الموقعة فأجاب المتحدث بصوت تخنقه العبرة الجامدة ، « لقد تولى رفاقى إدارتها بنجاح حتى ارتد العدو أما أنا فقد واريت قتيلى التراب » .

* * *

من يراقب أولئك الأصدقاء يؤلفون دائرة فى وسطها رجيلات تكركر ، وأنفاس تطلق فى الهواء ، يحس بأن لا فارق بين المتحدث والسامع فى اعتصار أحداثه من قرارة نفسه ، وأن الكلمات المهموسة تبلغ مكمن الضمير وحنايا الوجدان .

— ٤ —

أحدثكم أيها الرفاق عن حادثين متناقضين يسبقان أحداث الثورات الداخلية ، لعلى أعيد بهما نضرة الحياة إلى وجوهكم وقد فنيت فيها البشاشة وغاضت مياهها .

وحكايتى لا بد لها من مقدمة أقرر لكم فيها ، أن المبادىء التى يصطنعها أصحاب الأغراض الوطنية ويتخذها الشبان مثلا عليا ، ليست إلا سطورا مسجاة فى صدورنا ، أو جثثا مدفونة فيها ، قيمتها فى الثروة عنها ، وهى على وجه التمثيل كالبخور الذى يطلقه المشعوذ ، أما تنفيذ المبادىء والعمل للمثل العليا ، أو العمل على الأقل ، فى حيز غير بعيد عنها ، فليس فى وسع الرجل أو الشعب الذى قضى عليه بأن يكون محكوماً ، ولا راد لقضاء القوة عليه ؟ ! !

ولبيان ذلك أقول : ألفنا نحن الطلاب العرب ، أيام كنا نطلب العلم فى الاستانة ، جمعية اتخذنا لها القانون الذى قننه لنا أصحاب المثل العليا فى الوطنية والقومية ، وأقسمنا بالله وبالشرف والوطن على تنفيذه بسلاحنا ودمائنا .

ساقتنا الدولة العلية التى كنا نعمل للخلاص منها ، والانعتاق من عبوديتها ، إلى محاربة دولة غربية كنا نؤمن آنذاك أن لا سبيل لنيل استقلالنا الوطنى ، وتحقيق آمالنا القومية العربية ، إلا بمساعدتها إيانا .

وقفت ورفاقى نتحسس المبادىء المدفونة فى صدورنا ، وإذا الأوامر العليا تستحثنا على التقدم والقتال ، وشعرنا بأن قوة جارفة من حديد ونار تجرفنا من الوراء إلى الأمام .

حاربنا ، أجل لقد حاربنا من قال زعماؤنا عنهم إنهم عدتنا للاستقلال ، وقاتلنا قتال المجاهدين فى صفوف من قالوا لنا إنهم أعداء استقلال وطننا وقوميتنا !!!

لقد أنستنا الحرب إنسانيتنا وردتنا إلى أصولنا المتوحشة .

كنت فى بداية الحرب ، وقد خفت ميدان القتال ، لا تفارقنى الأشباح الرعبة ، والخيالات المزعجة لشخوص من كنت أراهم يسقطون بضربة سيف ، أو بطلقة مسدس أطلقها من دون وعى ،

وما عتّمت أن تأكدت مشاعرى فصرت كالجزار ينحر الكبش وهو يكبّر .

صدرت إلينا الأوامر من القيادة بأن نحتفظ بمواقفنا مهما كلفنا الأمر ، وبأن نعمل على التقدم مهما بهظ الثمن . كانت المدافع تدوى ، والقذائف تحفر فجوات فى الفضاء فتكظم بزخمها نفس من يدنو من طريقها العريض ، وبرغم ذلك كنا كالماجد نتقدم فنحفر حفرة تتحول فى وقت قصير إلى خندق يقينا ويلات المدافع الرشاشة .

لم نكن نحفل بمن يستشهد منا ، أو يجرح فيتلوى كالطفل المغوص ، بل كان همنا أن نتقدم وأن نقى أنفسنا ، ونحتفظ بمراكزنا ، كأن فى ذلك منجاة لنا من موت يحوم فوقنا .

يالله يا أصدقائى من نزعة حب البقاء كيف تدفع بنا إلى الموت حباً للحياة ، كان الوجود بأكله فى ناحية ، وكنت أنا وحدى فى الناحية الأخرى ، فلو فنى الوجود بمن عليه وبقيت أنا وحدى لكنت الوجود بتمامه وكماله ، ولم أكن أفكر ساعة الموقعة إلا فى شىء واحد هو « أنا » .

لا أدرى كيف لم تغب شمس ذلك النهار ، لأن الجو كان مناراً بآلاف من ومضات المدافع وشرار البنادق فكان من مجموعها يتألف نور وضاء ساعد على مواصلة القتال .

لم يكن الزاد ينقصنا ، وأكوام الذخيرة تطمئننا على أن فى وسعنا الدفاع عن أنفسنا حباً فى البقاء .

أين الراحة ؟ كيف السبيل إليها والموقعة ما برحت تتطلب الدماء !! لقد ارتوت هاتيك البطاح بدماء المتقاتلين فلمن منهم تثبت الإصلاح يارى ؟ كنا نتقدم تارة ونتراجع أخرى ، هذه هى الحرب السجال ولكن متى تنتهى الموقعة أو تخمد نارها ؟

انبلج الفجر ، وأشرقت الشمس ، وأقبل الليل الثانى !! لم أعد أحس بحماس للحياة ، ولا بدافع إلى البقاء ، إنما أنا فى حاجة إلى النوم ، إلى نوم عميق طويل ينقذنى من نفسى ، إلى هروب من هذه النفس التى تحوطها عناية الله ، وينزل بها بلاء الإنسان .

يا للشيطان !! هل هناك تناقض بين غايتين غاية الله فى الحياة وغاية الإنسان فى إزهاق الحياة ؟

ألقيت بجسمى فى حفرة من هذه الحفر التى شققناها بمعاولنا وأظافرنا فصارت خنادق طويلة عميقة ، ألقيت مسدسى كأن لم يعد لى حاجة إليه ونمت .

كم ساعة قطع النوم من عمرى ؟ لا أدرى !! أقسم لكم يا إخوانى أن لو اتصل نومى بالأبدية لما قلت إلا أنه الراحة الكبرى ... ولكنى استيقظت . لقد أيقظتنى مياه غمرت الخندق وقد بلغ ارتفاعها فمى ، وقد أخذت امتصها مع التنفس وكدت أختنق من الغصّة . نهضت كالكلب المبلول ، أنفض جسمى والسمال يكاد يخنقنى وكنت أرتعد من البرد ، وإذا بجماعة من الجند يصوبون فوهات بنادقهم إلى صدرى ، بحمت منها رطانة تنبهنى إلى أنى أسير .

عرفت بعد إذ بلغت مكان الاعتقال من زملائى الأسرى الذين جاءوا بعدى أننا لم نخسر تلك الموقعة ، ولم نفقد مراكزنا الأمامية ، ولكن حين شعر الأعداء بأعيائنا وبحاجتنا إلى الراحة ، خففوا ضغطهم علينا ، وعند ما طلبنا الراحة مستسلمين للنوم ، حوّلوا مجرى مياه النهر نحونا فغمرت خنادقنا وأغرقتها ، فغطس فيها من غطس غرقاً ، ونجا من الموت من أفاق من النوم وداهمته قناصة الأعداء ليلقى منهم الأسر كما لقيته أنا . ومن العجب العجاب أن حكومة الدولة التى أسرتنى ، بعثت بى إلى ميدان حرب جديد أقاتل فيه مع إخوانى من كنا نقاتل فى صفوفهم !! والفرق بين الدولتين أن العثمانيين ضنوا علينا بالاستقلال وأن الانجليز وعدونا به فصدقنا وعدهم !!! والأغرب من هذا ، أنى بينما كنت أحارب الأتراك بسلاح من الانجليز معار إلى الدولة العربية التى ارتجلتها السياسة ارتجالا ، التقيت عفواً بأخى الضابط يحافظ على الخط الحديدى الحجازى الذى انتدبت لنسفه بالديناميت ؛ وقد ساعدنى على إتمام مهمتى وعاد هو ورجاله معى لا كأسرى حرب بل كجنود بالجيش العربى ، جيش الخلافة العربية .

(يتبع) حبيب الزحلاوى

بادر باقتناء نسختك من :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

احمد حسن الزيات

وقد زيدت عليه فصول لم تنشر

يطلب من إدارة الرسالة ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه ١٥ قرشاً

اعلان

يوجد بإدارة التوريدات بوزارة المعارف عدد محدود من نسخ الجزء الثانى من آثار أبى العلاء — وتباع النسخة للراغبين بمبلغ جنيه مصرى واحد .

٤٦٩٣

سكك حديد الحكومة المصرية

عرض الاعلانات بالمحطات

لقد وجهت المصلحة كل عنايتها إلى المحطات فأقامت بها لوحات خشبية أعدت خصيصاً لعرض الإعلانات فضلا عن أنها تبذل مجهوداً صادقاً من وقت لآخر فى تجميل تلك المحطات حتى أصبح الإعلان فيها من أحسن وسائل الدعاية التى ينشدها كل من يرى إلى التوسع فى أعماله وكل تاجر يسعى إلى رواج تجارته .

وتتقاضى المصلحة جنيهين مصريين عن المتر المربع فى السنة وهى قيمة زهيدة تكاد لا تذكر بجانب أهمية الإعلان الذى يتصفحه آلاف المسافرين فى اليوم الواحد

ولزيادة الاستعلام اتصلوا — بقسم النشر والاعلانات

بالادارة العامة — بمحطة مصر

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)